مواقع التراث المعمارى الإسلامى بنابلس – فلسطين
دراسة أثرية فنية

أ/ شيماء سيد شاكر

أ.د. عبدالعزيز صلاح سالم

كلية الآثار–جامعة القاهرة

ملخص البحث

يشير مفهوم مواقع التراث المعمارى الإسلامى إلى المساجد بصفة مباشرة تليها المدارس والخانقاوات، ولمّا كانت المساجد هي السمة الأولى للعمارة الدينية من ناحية، مع ندرة المدارس الأثرية في نابلس من ناحية ثانية، فإن البحث يدور حول المساجد الأثرية في البلدة القديمة بنابلس، إذ انتشرت المساجد في نابلس كغيرها من المدن والبلدات الإسلامية، وقدمت إلى جانب كونها دوراً للعبادة نشاطاً علمياً ملحوظاً ربما ساهم في تعويض قلة المدارس التعليمية، إذ بقي بالبلدة نحو 19 مسجداً أثرياً تتوزع أماكنها على مختلف حارات وأحياء البلدة القديمة، ويمكن التطبيق على عمارة أهم مسجدين في المدينة كأمثلة على عمارة وتاريخ عمارة العمائر الدينية في نابلس عبر تاريخها الطويل الممتد منذ الفتح الإسلامي لها في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه 13–23هـ وحتى أواخر العصر العثماني بها.

الكلمات الدالة: البلدة القديمة بنابلس، العمارة الدينية، جامع الخضراء، المسجد الصلاحي، مساجد نابلس.

المقدمة

يحظى المسجد في المدن العربية والإسلامية بمكانة مركزية، ويعد المركز الروحي والديني والثقافي، وهو مكان للعبادة والصلاة، وهناك عدة درجات في المسجد بداية من المسجد الجامع مثل الجامع الكبير ثم مسجد أو جامع الحي ويكون أصغر حجما من المسجد الجامع وأقل مركزية، لأن مركز المسجد يكون داخل الحي (الحارة) مثل مسجد الحنبلي والبيك، ثم تأتي الزوايا والمقامات وهي دور عبادة صغيرة كانت تستخدم في القديم ككتاتيب مثل مقام الخضر، وجاءت مواضع الجوامع الرئيسية في المركز التجاري، ومساجد أخرى وجدت بالقرب من الأحياء السكنية، وكان في نابلس أحد عشر جامعاً كبيراً سيطرت بعلاماتها المميزة وهي القباب والمآذن على الشكل العام للمدينة.

وقد لقيت المساجد منذ مطلع التاريخ الإسلامي عناية خاصة نظراً لما يتمتع به المسجد من دور كبير في حياة الفرد والمجتمع على السواء، وقد أوليت هذه المنشآت عناية فائقة سواء في هندستها وتخطيطها المعماري، أو في وحداتها الزخرفية وعناصرها المعمارية.

تقع مدينة نابلس على بعد يبلغ 69 كم عن القدس شمالا، و 114 كم عن عمان جنوبا، و42 كم عن البحر المتوسط شرقا، ويمتد عمران المدينة فوق جبل عيبال شمالاً وجبل جرزيم جنوباً وبينهما وادٍ يمتد نحو الغرب، وقد ازداد عدد المسلمين من سكانها شيئاً فشيئاً بعد الفتح الإسلامي وظل عمران المدينة في التوسع إلى أن سقطت تحت الحكم الصليبي سنة 1099م1، قبل أن تعود لحكم المسلمين الأيوبيين والمماليك ، وصارت المدينة في العصر العثماني عاصمة سنجق ، ثم خضعت المدينة للحكم المصري الذي دام تسع سنوت في بلاد الشام، واحتلها البريطانيون عقب هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، وخضعت فلسطين للانتداب البريطاني، وبعدها سقطت تحت الاحتلال الإسرائيلي عام 1967م، وتزخر مدينة نابلس بعدد من المساجد الأثرية يبلغ عدد ما تبقى منها نحو 19 مسجدٍ تتوزع على حارات البلدة القديمة وأقسامها يمكن مراجعتها في الشكلين(1-2).

المبحث الأول: الدراسة الوصفية

نظراً لكثرة هذه المساجد فإنه يمكن التطبيق على بعضها لمعرفة السمات المعمارية الرئيسية لها إجمالاً إذ أنها تتسم بالتشابه المعماري من ناحية، وبالفقر الزخرفي من ناحية ثانية، ومن ثمّ فإن التخطيط المعماري يبقى السمة الرئيسة التي تربط بين هذه المساجد وبعضها رغم ندرة الزخارف الفنية، ومن أهم مساجد البلدة القديمة بنابلس ما يلي:

المسجد الغربي: وهو من أشهر مساجد نابلس القديمة، ذكره الحنبلي في الأنس الجليل باسم الجامع الغربي2، وعرف باسم الحنابلة منذ القرن 7هـ/13م لتوالي الحنابلة على وظيفة الإمامة فيه3.

جامع الخضراء: ويقع في حارة الياسمينة، ويقال أنه المكان الذي حزن فيه يعقوب على ابنه يوسف (عليهم السلام)، وقد عمّره السلطان قلاوون الصالحي (678-689هـ/1279-1290م) إذ جاء على نقش تسجيلي منقوش على لوحة رخامية مثبتة أعلى باب المدخل ما يفيد ذلك4، هذا وقد أورد أوليا جلبي5 وصفاً للجامع بأنه بناء مربع يبلغ طول ضلعه 87 خطوة، أما الفرنسي إنلارت فذكر بأن المسجد مبني على النمط القوطي في فترة إعادة الاستيطان الصليبي القصيرة6 أي سنة 640هـ/1242م7، وهو قول غريب إذ لم يعرف وجه الصلة أو السند الذي ادعاه (إنلارت).

ويمكن وصف ودراسة أحد مساجد البلدة القديمة وهو المسجد الصلاحي الكبير، وذلك لمعرفة سماته المعمارية والفنية على النحو التالي:

موقع المسجد: يقع هذا المسجد شرقي المدينة عند مدخلها الرئيسي جهة الشرق8، وقد كان هذا المسجد في بداية الأمر مسجد ثم حوله الصليبيون إلى كنيسة كبيرة، ومن ثم أعاد صلاح الدين الأيوبي المسجد إلى سابق عهده فحول الكنيسة إلى جامع ونسب إليه وذلك سنة 583هـ/1187م9.

تاريخ المسجد: ورد ذكر الجامع في سجلات المحكمة الشرعية بنابلس10، وعند أوليا جلبي الرحالة التركي سنة 1082هـ/1671م11، وعند النابلسي 1101هـ/1689م12، وعند غيرهم، كان يعرف

أثناء الاحتلال الصليبي باسم كنيسة القيامة13، وعلى ما يبدو فقد سمي بهذا الاسم للتشابه الكبير مع كنيسة القيامة في القدس14، وقد تعاقب على أمر هذا المسجد والتدريس فيه علماء عديدين منهم، عبدالرحمن بن عبدالكريم النابلسي إمام الفقه والنحو، والعالم ابن مكية أبو الفضل النابلسي الشافعي الذي شغل منصب إمامة المسجد15، وقد أورد بعض الرحالة وصفا عاماً للمسجد، منها أن بالمسجد 8 أعمدة رخامية رقيقة تقوم عليها عقود نصف دائرية، فيما يبلغ عدد الأعمدة الجرانيتية الوردية نحو 55 عموداً ليجمع المسجد في ماده الخام للأعمدة بين الجرانيت والرخام، وأما طول الجامع فقدر بنحو 300 خطوة16، أو ما يقارب 150 متراً.

وظيفة المسجد من خلال النقوش والكتابات الأثرية: لم تقتصر وظيفة المسجد على أداء الشعائر الدينية، ولم يكن مجرد مبنى منفرد، بل كان بمثانة مجمع معماري إذ ألحقت به مدرسة تضم عددا من خلاوي الطلاب لمبيت طلبة العلم بداخلها، وإلى خارج المسجد ملتفاً حوله سوق مسقوف، وقد نسبت البناية الأصلية إلى مصطفى بك الغفاري من خلال النقش التأسيسي17 موجود أعلى شاهد قبر ملحق بالجامع مسجل بخط النسخ من ستة أسطر كتابية نصها:

هذا قبر المرحوم
مصطفى بيك الغفاري
عليه رحمة الله الباري عمر
بإشارة من رضوان بك أمير
الركب المصري18 في ربيع
الأول لسنة 1051هـ من محمد حبيب19

وعلى لوحة رخامية أعلى عقد المدخل الشرقي للجامع نص تأريخي آخر يؤرخ لتجديد عمارة المسجد من ستة أسطر كتابية أيضاً، نصه؛

إذا ما جئت نابلساً فبادر20
وعرج نحو جامعها الكبير
تجده عامراً يدعو بخير
وبتأييد21 لمولانا الوزير
أتى التاريخ لطفاً يا مجيد
بحسن إحياه واجز به بخير

ومن ثم فقد سجل تاريخ التجديد لعمارة المسجد بحساب الجمل من بعد كلمة أتى التاريخ، ليكون تاريخ تجديد المسجد سنة 1139هـ/1676م، وذلك من قبل أمير الحج الشامي سليمان بك22.

لم تقتصر أهمية النقوش الأثرية في هذا الجامع على النقوش الرخامية المدونة على ألواح تعلق على جدران المسجد، بل تضمن داخل المسجد على نقوش أثرية من شأنها أن تؤرخ لبعض الإصلاحات أو الإضافات المهمة التي جرت لأجزاء من المسجد، ومنها وجود نقش على المنبر الحجري للجامع يتضمن إشارة لتعمير منبر الجامع على يد محمد جاويش بن كمال بكر سنة 1016هـ23 (تعادل سنة 1690م)، وذلك في نقش من ثلاثة أسطر كتابية مسجلة بخط النسخ نصها:

عمر هذه

المنبر محمد جاويش

بن كمال بك 1016

وتتسم كثير من العناصر المعمارية والزخرفية القائمة بالمسجد بأقدميتها وأثريتها إلى جانب تنوعها التاريخي وامتدادها الزمني، إذ توجد به أحجار قديمة مجلوبة من عمائر رومانية، وأعمدة رخامية وبازلتية ذات تيجان كورنثية الشكل من العصر الروماني وذلك في القسم الغربي من بيت الصلاة بما يوحي أن هذا القسم ربما يرجع لعهد الاحتلال الصليبي، أما القسم الشرقي من بيت الصلاة فتخطيطه وعناصره المعمارية تشير إلى تأسيسه أيضاً إلى العصر الأيوبي وما قبله أثناء الاحتلال الصليبي، ويؤكد على ذلك الاندماج الواضح في الأعمدة الرخامية والبازلتية التي تمتد بنفس امتداد الأعمدة الرخامية في القسم الغربي من بيت الصلاة، ومما يزيد هذه الفرضية وجود عدد من الرموز والأحرف اللاتينية على بعض الأحجار في المسجد.

ومن ناحية أخرى فإن هناك بعض النقوش العربية القديمة التي ظلت بقاياها بالخط الكوفي وذلك أسفل قاعدة المأذنة الواقعة فوق المدخل الشمالي الخارجي للجامع، ولما كان الخط الكوفي منتشرا قبل العصر الأيوبي ثم حلّ محله خط النسخ بامتداده إلى خط الثلث في العصر المملوكي، فهذا يؤكد أن موضع المسجد كان جامعا منذ ما قبل الاحتلال الصليبي، ثم أدخل الصليبيون عليه تعديلات وإضافات وحولوه إلى كنيسة سرعان ما نقضها صلاح الدين ليرجع المبنى إلى أصله كمسجد مرة أخرى.

ومما يعضد ذلك ويسانده أن الجغرافي المقدسي في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ذكر بأن المسجد الجامع في مدينة نابلس إنما يقع في وسطها24، وهي المنطقة التي يقع فيها الجامع الصلاحي الكبير، وإلى جانب ذلك فإذا راجعنا تخطيط وبنية المدن العربية الإسلامية، نجد المسجد الجامع يعد مركزها ومحورها الرئيسي الذي تتوزع حوله باقي وحدات المدينة وأجزائها، وهو ما ينطبق على الجامع بما يؤكد عربية تخطيط المنطقة كلها.

ومر الجامع بعدة عمليات ترميم قامت بإحداها مؤخرا بين 1935–1936م دائرة أوقاف نابلس تم خلالها إعادة بناء المدخل الشرقي الرئيسي الذي كان الصليبيون قد بنوه كمدخل للكنيسة سنة

563هـ/1167م وتهدم سنة 1927م إثر الزلزال الذي ضرب المدينة وقتها، ثم تمت عملية ترميم شاملة للجامع برعاية لجنة أهلية خيرية بعد موافقة الأوقاف وتحت إشراف الأستاذ عبدالله كلبونه تمت خلالها إزالة ما يشوه جدران المسجد من دهانات وألواح بلاستيكية وغيرها بما أظهر العناصر الأثرية القديمة للجامع، إلى جانب إعادة توحيد الإيوانين الصغيرين الملحقين بالجامع من الجهة الشرقية وضمهما لبيت الصلاة الكبير25.

كان المسجد قد أقيم على مرحلتين (شكل 3)؛ إذ أقيم القسم الغربي منه أعلى بازيليكا بيزنطية قديمة كان قد بناها الإمبراطور جستنيان في القرن السادس الميلادي، فيما أضيف القسم الشرقي سنة 1167م أيام الصليبيين، وحول هذا المبنى فيما بعد صلاح الدين الأيوبي إلى المسجد الصلاحي الكبير سنة 1187م26، وهو ما يفسر انحراف اتجاه القبلة بعض الشيء نظرا لعدم بناء المسجد من الأصل وتخطيطه وفق اتجاه القبلة27.

الوصف الخارجي للجامع

للجامع الصلاحي الكبير ثلاث واجهات خارجية مبنية من الحجارة القوية، ويطل بذلك على شوارع خارجية أهمها شارع النصر الجنوبي، وشارع الخان الشمالي، تختلف الأجزاء الظاهرة من الواجهات باختلاف مستوى أرضية الشارع فبينما يرتفع منسوب شارع النصر ليقل ارتفاع الواجهة نجده يقل في شارع الخان لنجد الواجهة أكثر ارتفاعاً.

أما الواجهة الثالثة فهي الواجهة الغربي، ويتميز القسم الجنوبي منها بامتداد غير مستقيم مراعاة لخط تنظيم الطريق، إلا أن أهم ما يميز هذه الواجهة وجود نبع مائي أو سبيل يعرف باسم (سبيل الكاس)، وتضم الواجهة مدخلا يؤدي إلى الجامع، فيما يقع المدخل الثاني في الجهة الشرقية، وهو المدخل الرئيسي الذي ترتبط به الواجهة الشمالية والجنوبية عبر انحناء أو انكسار يربط بينها وبعض، والمدخل عبارة عن فتحة كبيرة يعلوها عتب مستقيم من صنجات معشقة يعلوه نافذة معقودة بعقد نصف دائري تعلوه عقود دائرية أخرى متدرجة بشكل أكبر وتستند أطرافها عند أرجل العقود على الأعمدة الحجرية التي تحف كلا جانبي الفتحة بواقع ثلاثة أعمدة صغيرة في كل جهة، ويؤطر ذلك عقد حجري كبير يعلوه إفريز حجري مسنن، وهو من تجديدات دائرة أوقاف نابلس سنة 1935-1936م على النسق القديم الأثري للجامع (لوحة 1).

التخطيط والوصف المعماري الداخلي للجامع الصلاحي الكبير

يتكون الجامع من مساحة كبيرة تنقسم إلى بيت صلاة مركزي مستطيل المسقط مستعرض يمتد من الشرق للغرب، وينقسم بيت الصلاة إلى ثلاثة أروقة عبر بائكتين موازيتين تحمل عقودها في الجزء الشرقي أعمدة حجرية بينما تحمل عقود الجزء الغربي أعمدة رخامية، وتتميز تغطية الجامع في بيت الصلاة بالأقبية المتقاطعة بواقع 42 قبوا متقاطعا، وإلى أقصى الجنوب الشرقي من بيت الصلاة توجد

ساحة مكشوفة صغيرة (لوحة 2) تربط بين بيت الصلاة والإيوان الجنوبي الشرقي الذي أضيف للجامع فيما بعد ويوجد عنده المدخل الشرقي الرئيسي الذي يؤدي بدوره إلى ممر عريض مغطى بسقف حديث يؤدي إلى بيت الصلاة عبر الساحة المكشوفة من ناحية، وإلى المنطقة أو الإيوان الجنوبي من ناحية أخرى، بينما توجد ساحة في أقصى الشمال الغربي مكشوفة أيضا تربط بين المدخل الغربي وبيت الصلاة، إلى جانب وجود عدد من الغرف السفلية بمثابة غرف تخزين كان يقع بها الكنيسة الصليبية القديمة، وترجع أهمية هذه الساحة في أنها تضمن ميضأة رخامية تستخدم للوضوء (لوحة 3).

المبحث الثاني: الدراسة التحليلية

أولا: التخطيط المعماري

من الدراسة الوصفية للمسجد الصلاحي الكبير يتضح أن تخطيطه قد اعتمد على المساحة المغلقة التي تنقسم إلى عدد من المربعات تغطى كل منطقة منها بقبو متقاطع يقوم على دعامات حجرية، وتمت عملية البناء عبر مراحل متعاقبة، وأضيفت إلى هذا التخطيط ساحات مكشوفة صغيرة، إلى جانب مصلى مكشوف صغير بأحد أركان المسجد ككل، وربما يكون ذلك قد تمّ لاعتبارات مناخية لاسيما في فل الصيف، أو لأداء الصلوات التي يحبب فيها الصلاة في الخلاء كما في صلاة العيدية، ومن ثمّ تكون الصفة الأساسية لتخطيط مساجد نابلس الأثرية تطبيقاً على المسجد الصلاحي أنها مساجد مغلقة.

ويدعم هذه الفرضية تشابه مساجد أخرى في نابلس القديمة من حيث اعتماد التخطيط على المساحات المغلقة مع المسجد الصلاحي، ومن أهمها مسجد أو جامع الساطون (شكل 4) إذ يعتمد المسقط الأفقي له على بيت للصلاة مغطى ينقسم إلى رواقين موازيين يفصل بينهما عدد من الدعامات الحجرية، ويتقدم بيت الصلاة من الجهة الشمالية إيوان مغطى للصلاة أيضاً يقوم سقفه على عمود حجري، وإلى الغرب من الإيوان توجد الساحة الشمالية المكشوفة، وهي بحجم الإيوان، ومن ثم يكون المسجد في الشكل العام مكوناً من قسمين: أحدهما مغطى بكامله يمثل بيت الصلاة، والآخر يقع إلى شمال بيت الصلاة المغطى، ويتكون من ساحة مكشوفة يقع على جانبيها إيوانين: كبير في الجهة الشرقية، وآخر صغير في الجهة الغربية، ومن ثم يجمع المسجد بين الإيوانات وبيت الصلاة المغطى بسقف مسطح يقوم على دعامات، ورغم وجود الساحة المكشوفة في المسجد إلا أنه لا يمكن اعتبارها أساساً في التخطيط المعماري ذلك لصغر حجمها من ناحية، ولأن الإيوانين والساحة المكشوفة يرجع تاريخ بنائهما إلى فترة لاحقة على إنشاء الجامع نفسه بفترة كبيرة، وهو ما تؤكده الكتابات الأثرية التأسيسية بالمسجد، إذ يؤرخ نقش أثري يقع أعلى عقد الإيوان الشمالي الغربي المطل على الصحن إلى تعمير للمسجد سنة 798هـ/1399م على يد الحاج صدقة الحصري، ومع أن النص يطلق على

التعمير اسم مكان إلا أنه يمكن نسبة بناء السدة الحجرية28 الواقعة شمال بيت الصلاة إلى هذا التعمير، حيث أن طابعها المعماري يتميز باستناد جنوبها على سلسلة من العقود الدائرية التي تستند بدورها على الدعامات الحجرية التي تتوسط بيت الصلاة، وتشير سجلات محكمة نابلس الشرعية إلى هذه السدة الحجرية سنة 1066هـ/1655م حينما سجلت تعيين الشيخ صلاح الدين بن الشيخ محمد بن شهوان في وظيفة قراءة العشر الشريف بها في جامع الساطون.

ونص هذا النقش من ثلاثة أسطر كتابية بخط

1 – بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد من آمن بالله واليوم

2– الآخر أنشا هذا المكان المبارك العبد الفقير

3– إلى الله تعالى الحاج صدقة الحصري وذلك في شهر رجب سنة ثمان وتسعين وسبعماية29.

وتم إضافة الإيوانين الجانبيين للمسجد في سنة 1099هـ/1687م في كل من الجهة الغربية والشرقية من صحن الجامع بأمر قاضي نابلس الشرعي إلى متولي الوقف الشيخ فخر الدين شرف الدين، واشترط أن يفتح فيهما بابا للجامع، وبيني سلماً حجرياً يتوصل منه إلى ظهر الإيوانين المذكورين، وأن تؤخذ أحجار بناؤهما من الأحجار المتهدمة في مسجد الخضراء، كما جرى تجديد بناء الجامع مرة أخرى سنة 1269 هـ/ 1852م في العصر العثماني المؤسس والمعمرين.

وقد زار الشيخ عبد الغني النابلسي جامع الساطون حيث قال: «وذهبنا إلى جامع الساطون وتبركنا فيه بآثار الصالحين30، ويذكر (النمر)31 بأن المسلمين بنوا مسجداً موضع معبد إفرنجي سموه جامع الساطون كان الفرنجة32 قد حولوه إلى كنيسة، ويفهم من قوله هذا أن الجامع كان قائما قبل الاحتلال الصليبي لنابلس سنة 492هـ/1099م وأن الفرنجيين قاموا بتحويله إلى كنيسة، غير أن المسلمين وبعد تحرير المدينة من أيدي الفرنجة قاموا بتحويل الكنيسة إلى جامع، غير أنه لا يوجد ما يؤيد هذا القول تاريخياً أو أثرياً في مبنى الجامع، خاصة أن النمر لم يذكر مصدره التاريخي الذي اعتمد عليه، والأرجح أن الجامع قد استمر كجامع منذ تأسيسه وخلال العهد الفرنجي للمدينة ولم يجرِ تحويله إلى كنيسة33.

ثانياً: العناصر المعمارية والزخرفية

اتسمت العناصر المعمارية بمساجد نابلس بأنها من النسيج الطبيعي المتوفر بالمدينة، وهو متجانس مع غيرها من عمائر أخرى تضفي على البلدة القديمة بنابلس أهمية وتميزاً تراثياً عمرانياً خاصاً، إذ أن التجانس الذي توفره مواد البناء التقليدية وطرق التشييد تعتبر جزءا من الأصالة والأثرية وينبغي احترامها34، وقد حافظت نابلس على المواد التقليدية في البناء إلى جانب طرق التشييد؛ كلٌ في موضعه وتبعاً لوظيفته وأسلوب الاستثمار الأمثل له، وحتى في الترميم والصيانة فقد خطت بلدية نابلس خوات عظيمة نحو الترميم الأمثل والصيانة المتميزة للحفاظ على أصالة المباني التراثية

والأثرية، وهو ما يميز مواقع التراث العمراني بنابلس ويؤهلها لتكون مدينة تراثي عمراني مهمة في تاريخ فلسطين.

وقد بنيت المساجد بالحجارة وذلك لتوفرها في البلدة على عكس الآجر الذي يوجد بندرة، ومن حيث الروافع فقد استخدمت الأعمدة والدعامات جنباً إلى جنب مع الجدران في رفع أسقف المساجد، سواء في الجامع الصلاحي الكبير (لوحات 4-5) أو جامع الساطون الذي تواجدت فيه الدعامات تحمل سقف بيت الصلاة، فيما وجد العمود المستدير الذي يحمل سقف الإيوان الشمالي الشرقي الكبير، وكذلك التغطيات فقد وجدت الأقبية المختلفة، إذ شاعت الأقبية المتقاطعة في الجامع الصلاحي الكبير (لوحات 4-5)، بينما وجدت الأسقف المسطحة والأقبية البرميلية في جامع الساطون.

وأما العناصر الزخرفية بمساجد نابلس، فإنها نادرة، ولعل أبدع ما يمثلها تلك الأشكال الزخرفية الفنية البديعة التي تؤطر فتحة المدخل الشرقي الرئيس للجامع الصلاحي الكبير (لوحة 1)، إذ أن عتب الفتحة منفذ بصنجات حجرية معشقة يعلوها نفيس بهيئة عقد نصف دائري يؤطره ثلاثة مستويات من العقود النصف دائرية ذات بروزات من الحليات الزخرفية، يتميز العقد الأكبر الخارجي منها بأن بروزه مملوء بالأشكال الزخرفية النباتية، فيما يحمل هذه العقود زوج من الأعمدة في كل جانب، وهي أعمدة رخامية لها تيجان منحوتة على هيئة أوراق نباتية.

وتتسم كثير من العناصر المعمارية والزخرفية القائمة بالمسجد بأقدميتها وأثريتها إلى جانب تنوعها التاريخي وامتدادها الزمني، إذ توجد به أحجار قديمة مجلوبة من عمائر رومانية، وأعمدة رخامية وبازلتية ذات تيجان كورنثية الشكل من العصر الروماني وذلك في القسم الغربي من بيت الصلاة بما يوحي أن هذا القسم ربما يرجع لعهد الاحتلال الصليبي، أما القسم الشرقي من بيت الصلاة فتخطيطه وعناصره المعمارية تشير إلى تأسيسه أيضاً إلى العصر الأيوبي وما قبله أثناء الاحتلال الصليبي، ويؤكد على ذلك الاندماج الواضح في الأعمدة الرخامية والبازلتية التي تمتد بنفس امتداد الأعمدة الرخامية في القسم الغربي من بيت الصلاة، ومما يزيد هذه الفرضية وجود عدد من الرموز والأحرف اللاتينية على بعض الأحجار في المسجد.

ثالثاً: الكتابات

معلومٌ أن النقش دليل أثري مباشر يؤرخ لما يتضمنه من معلومات، وقد اتسمت الكتابات الواردة في مساجد نابلس بأنها كتابات تاريخية تأسيسية، تؤرخ إما لبناء المسجد، أو لتجديده، أو لإضافة تمت له بما يضفي عليها أهمية خاصة.

وقد أفردنا في هذا البحث بعضاً من النقوش الواردة في مساجد البلدة القديمة بنابلس، وهي تمثل أهمية كبيرة من الناحية الحضارية، كون بعضها مسجل بخط النسخ الذي كان شائعاً خلال الفترة الأيوبية وقد تمثل ذلك في الجامع الصلاحي الكبير، وتمثل بعضها الآخر في خط الثلث الذي يؤرخ

للفترتين المملوكية ومن بعدها العثمانية، على أن هذه النقوش تضفي أيضاً نواحي حضارية أخرى ذات علاقة بوظيفة المساجد ذاتها والتي لم تقتصر على كونها دور عباده، ويتمثل هذا النموذج أجمل ما يكون في النقش التأسيسي على شاهد قبر داخل حدود المسجد الصلاحي الكبير باسم المرحوم مصطفى بيك الغفاري35، إلى جانب وجود نقوش أخرى تفيد بتجديد اعمارة المسجد سنة 1139هـ/1676م من قبل أمير الحج العثماني سليمان بيك، وقد سجل تاريخ التجديد بحساب الجمل36.

وتظهر أهمية الكتابات من ناحية أخرى، ذلك بأنه توجد بعض النقوش العربية القديمة التي ظلت بقاياها بالخط الكوفي وذلك أسفل قاعدة المأذنة الواقعة فوق المدخل الشمالي الخارجي للجامع الصلاحي الكبير، ولما كان الخط الكوفي منتشرا قبل العصر الأيوبي ثم حلّ محله خط النسخ بامتداده إلى خط الثلث في العصر المملوكي، فهذا يؤكد أن موضع المسجد كان جامعا منذ ما قبل الاحتلال الصليبي، ثم أدخل الصليبيون عليه تعديلات وإضافات وحولوه إلى كنيسة سرعان ما نقضها صلاح الدين ليرجع المبنى إلى أصله كمسجد مرة أخرى.

لم تقتصر الكتابات الواردة في مساجد نابلس على الجدران، بل وجدت على التحف الفنية الموجودة فيها، ومنها نقش على المنبر الحجري للجامع يتضمن إشارة لتعمير منبر الجامع على يد محمد جاويش بن كمال بكر سنة 1016هـ37 (تعادل سنة 1690م)، وذلك في نقش من ثلاثة أسطر كتابية مسجلة بخط النسخ نصها:

عمر هذه

المنبر محمد جاويش

بن كمال بك 1016

ومن نماذج النقوش التأسيسية الباقية إلى الآن (لوحة 6) يمكن تتبع ورصد عدة مراحل لتطور مساجد نابلس، ومنها جامع الساطون، فمن دراسة النقوش والكتابات الموجودة بالمسجد يمكن القول بأن نواته الأولى يرجح أنها تعود إلى بداية الفتح الإسلامي حيث اعتبر الجامع عمري النسبة أي أنه يعود بتأسيسه وبنائه الأول إلى عهد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب (13-23هـ/ 634-644م)38 وأن الجامع قد عُمِّر من قبل جمال الدين نور الأمراء بن شمس الدين بن الطاهر بن الشهيد في سنة 688هـ/1288م في العصر المملوكي، ومع أن النقش لا يحدد ماهية التعمير هذه، إلا أنه يمكن نسبة سقف بيت الصلاة والدعامات الحجرية التي تتوسطه، وهذا النقش من الرخام، تبلغ مقاساته 70 سم X 48 سم وكتب بخط النسخ المملوكي ويتكون من خمسة أسطر نصها:

بسم الله الرحيم إنما بعمر مساجد الله من آمن بالله

واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين جدد هذا المسجد المبارك

العمري وعمره الفقير إلى الله تعالى جمال الدين نور الأمراء بن شمس الدين بن الطاهر بن الشهيد رحمه الله

تعالى ورحم والده وأجزاه وأثابه ورحم من دعا العمر بالمغفرة والرحمة ولوالديه ولجميع المسلمين

وذلك مما عمر في شهر رجب الفرد الأحد سنة ثمان وثمانين وستماية39.

ويشير نقش رخامي آخر نشره الباحث النابلسي (عبدالله كلبونه) إلى إنشاء مئذنة في الجامع على يد محمد بن عماد الدين إبراهيم الشهيد، وذلك في سنة 759هـ/ 1358م ويتكون النقش من أربعة أسطر بخط النسخ المملوكي وتبلغ مقاساته 80 سم في 50 سم ويقوم أعلى المدخل الجنوبي للمئذنة الحالية ونصه:

بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله.

واليوم الآخر انشا هذه المئذنة العبد الفقير إلى

الله تعالي محمد بن المرحوم عماد الدين إبراهيم

الشهيد عفا الله عنه وذلك في شهر جمادي الأول سنة تسع وخمسين وسبعماية40.

ويؤرخ نقش ثالث يقع أعلى عقد الإيوان الشمالي الغربي المطل على الصحن إلى تعمير للمسجد سنة 798هـ / 1399 م على يد الحاج صدقة الحصري، ومع أن النص يطلق على التعمير اسم مكان إلا أنه يمكن نسبة بناء السدة الحجرية41 الواقعة داخل شمال بيت الصلاة إلى هذا التعمير، حيث أن طابعها المعماري يتميز باستناد جنوبها على سلسلة من العقود الدائرية التي تستند بدورها على الدعامات الحجرية التي تتوسط بيت الصلاة، وتشير سجلات محكمة نابلس الشرعية إلى هذه السدة الحجرية سنة 1066هـ/1655م حينما سجلت تعيين الشيخ صلاح الدين بن الشيخ محمد بن شهوان في وظيفة قراءة العشر الشريف بها في جامع الساطون.

ونص هذا النقش من ثلاثة أسطر كتابية بخط

1 – بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد من آمن بالله واليوم

2– الآخر أنشا هذا المكان المبارك العبد الفقير

3– إلى الله تعالى الحاج صدقة الحصري وذلك في شهر رجب سنة ثمان وتسعين وسبعماية42.

وتم إضافة الإيوانين الجانبيين في سنة 1099هـ/1687م في كل من الجهة الغربية والشرقية من صحن الجامع بأمر قاضي نابلس الشرعي إلى متولي الوقف الشيخ فخر الدين شرف الدين، واشترط أن يفتح فيهما بابا للجامع، وبيني سلماً حجرياً يتوصل منه إلى ظهر الإيوانين المذكورين، وأن تؤخذ

أحجار بناؤهما من الأحجار المتهدمة في مسجد الخضراء، كما جرى تجديد بناء الجامع مرة أخرى سنة 1269 هـ/ 1852م في العصر العثماني المؤسس والمعمرين.

الخلاصة وأهم النتائج

من دراسة النماذج الباقية للعمائر الدينية بالبلدة القديمة في نابلس، يمكن القول بأنها إحدى أهم عناصر النسيج العمراني والتراثي المعماري بالبلدة، ويمكن أن نخلص إلى النتائج التالية:

تتميز المساجد ببساطة تكوينها وتخطيطها الذي يعتمد في الغالب على بيت للصلاة يكون مغطى بكامله، فيما تتقدمه من الناحية الشمالية ساحة صغيرة مكشوفة، أو يلحق بيت الصلاة مصلى صغير مكشوف لأوقات الصيف أو لصلاة العيدين.

تنتشر المساجد في كافة أحياء البلدة القديمة بنابلس نظراً لأهمية كل جزء فيها، وتتعدد المساجد ليبلغ عدد ما تبقى منها نحو 19 مسجد في البلدة القديمة.

تمت عمارة المساجد وتطورها واتساعها تدريجياً منذ الفتح العمري لفلسطين حتى العصر الأيوبي فعصر الاتلال الصليبي ثم الفترة المملوكية وانتهاءً بالفترة العثمانية.

يعد الجامع الصلاحي الكبير أكبر المساجد الباقية بالبلدة القديمة بنابلس وأكثرها أهمية يليه جامع الخضراء وجامع الساطون.

اتسمت عمارة مساجد نابلس بتجانس موادها الخام مع البيئة المحيطة نظرا لوفرة الأحجار.

اتسمت العناصر المعمارية بالتنوع لاسيما في التغطيات والروافع، وإن غلب عنصر الأقبية المتقاطعة، مع وجود الدعامات.

جمعت العمائر الدينية في تخطيطها بين بيت الصلاة المغطى والذي ينقسم إلى عدد من الأروقة يفصل بينها صف من الروافع، وبين الإيوانات التي تقع على جانبي رحبة مكشوفة كما في جامع الساطون.

وجدت العناصر الزخرفية على استحياء في العمائر الدينية بنابلس القديمة، وتمثل ذلك في تيجان الأعمدة وأشكال عقود المداخل.

اتسمت المساجد بوفرة النقوش والكتابات التاريخية سواء التأسيسية أو التي تؤرخ لتجديد المسجد أو لجزء منه.

تنوعت أشكال الخطوط التي نفذت بها الكتابات الأثرية بمساجد نابلس، ففي حين بقيت بعض أجزاء نقوش قديمة بالخط الكوفي، وجدت نماذج منفذة بخط النسخ وأخرى بخط الثلث.

أرخت النقوش والكتابات الأثرية بمساجد نابلس لبعض القطع الفنية المضافة لها مثل المنابر، وكذلك احتوت على التأريخ باستخدام حساب الجمل.

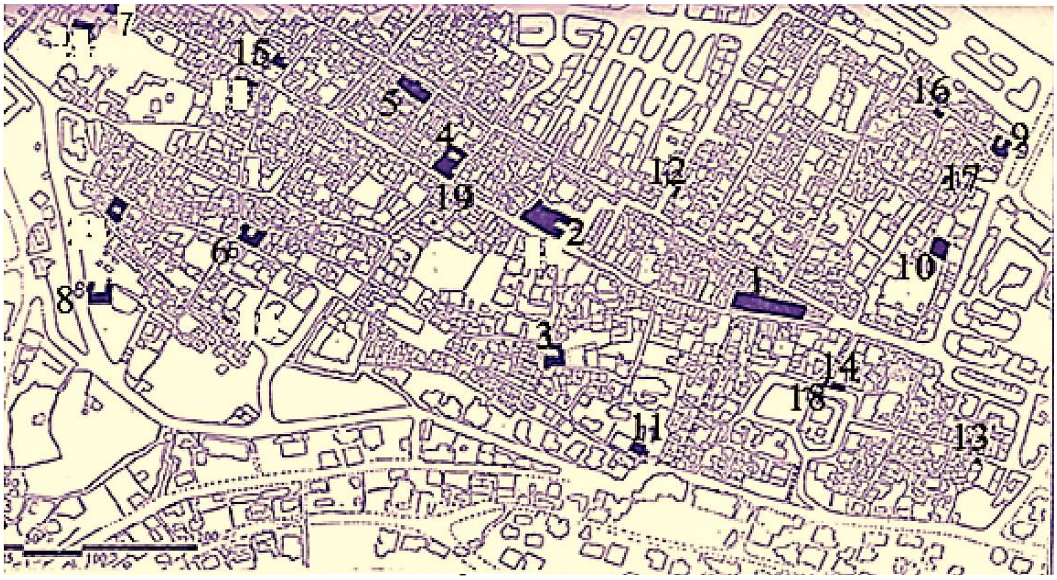

1- الجامع الصلاحي الكبير
2- جامع النصر
3- جامع التينة
4- جامع البيك
5- جامع الحنبلي
6- جامع الساطون
7- جامع الخضير
8- جامع الخضراء
9- جامع الأنبياء
10- جامع المصابن
11- جامع عجمج
12- جامع صلاح الدين
13- زاوية العمري
14- زاوية الرفاعية
15- زاوية التوباني
16- مسجد الشيخ بدر
17- مسجد الشيخ مسلم
18- مسجد الخضر
19- مسجد الشيخ بدران

شكل (1) خريطة توضح أماكن العمائر الدينية في البلدة القديمة بنابلس (بتصرف الباحثة).

شكل (2) خريطة توضح توزيع المساجد في البلدة القديمة بنابلس، عن (قطاع التخطيط الحضري، بلدية نابلس)

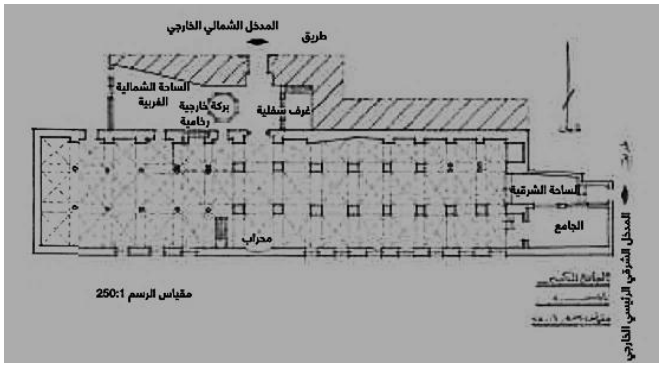

شكل (3) المسقط الأفقي للجامع الصلاحي الكبير، عن (الأستاذ عبدالله كلبونه)

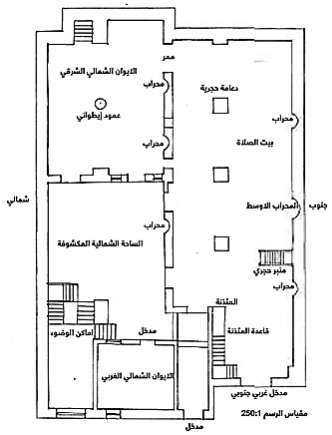

شكل (4) مسقط أفقي لجامع الساطون، عن (عبدالله كلبونه، المواقع الأثرية)

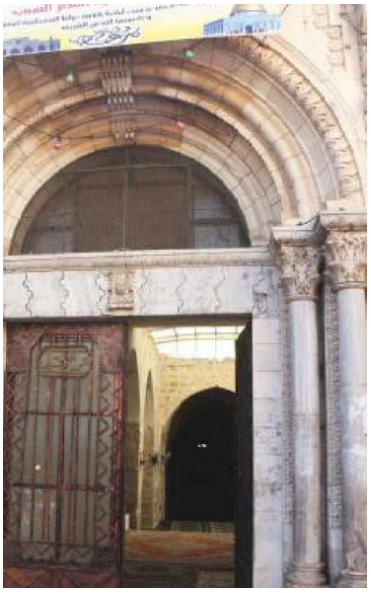

لوحة (1) المدخل الشرقي الرئيسي للجامع الصلاحي الكبير، (تصوير الأستاذ عبدالله كلبونه)

لوحة (2) من داخل ساحة الجامع الصلاحي، ويظهر بها عقد الإيوان الجنوبي الشرقي للجزء الذي أضيف إلى بيت الصلاة (تصوير الأستاذ عبدالله كلبونه)

لوحة (3) ميضأة الجامع في الساحة الشمالية الغربية، (تصوير الأستاذ عبدالله كلبونه)

لوحة (4) من داخل القسم الشرقي لبيت الصلاة وتظهر العامات الحجرية التي تحمل الأقبية المتقاطعة

لوحة (5) من داخل القسم الغربي لبيت الصلاة وتظهر الأعمدة الرخامية التي تحمل الأقبية المتقاطعة

لوحة (6) النقش الحجري الرخامي في ساحة أو صحن جامع الساطون

حواشي البحث

[1] قسم العلاقات العامة والدولية ببلدية نابلس، نابلس..حكاية مدينة، نشر بلدية نابلس، أيلول 2011م، ص6.

[2] الحنبلي، مجير الدين أبو اليمن، الأنس الجليل بتاريخ الس والخليل، مكتبة المحتسب، عمان، ج2، ص257.

3 طوقان، صبحي، نابلس صفحات مجيدة من الثقافة والحضارة والكفاح، نابلس، 1969م، ص56.

4 كامل العسلي، نقوش من نابلس والخليل، حولية دائرة الآثار العامة، عمان، 1992م، مجلد 36، ص370.

5 Evliya Tshelebis, Travels in Palestine (1648-50), translated from Turkish, Poston, 1980, p. 139.

6 Enlart, Les Monuments des Croises, 1976, p. 285.

[7] العزة، رئيسة عبدالفتاح، نابلس في العصر المملوكي 648-923هـ/1250-1517م، رسالة ماجستير بكلية الآداب، جامعة اليرموك، الأردن، 1995م، ص155.

8 العابدي، محمود، الآثار الإسلامية في فلسطين والأردن، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، 1973م، ص85؛ صبحي طوقان، جبل النار نابلس، ص57.

9 Evliya Tshelbes, Travels in Palestine, p. 48.

10 سجل إحصاء الأملاك والعقارات الوقفية، دائرة أوقاف نابلس، 1987م، ص16.

11 Evliya Tshelebis, Travels in Palestine, p. 48.

12 النابلسي، الشيخ عبدالغني (ت. 1143هـ)، الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية، تحقيق أكرم حسن العلبي، بيروت، لبنان، ط1، 1990م، ص92.

13 البيشاوي، سعيد، الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية(492-690هـ/1099-1291م)، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1990م، ص292.

14 العابدي، محمود، الآثار الإسلامية في فلسطين والأردن، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، 1973م، ص59.

15 العزة، نابلس في العصر المملوكي، ص141.

16Evliya Tshelebes, Travels in Palestine, p. 139.

17 علاونة، شامخ، الدور التاريخي لمدينة نابلس في قافلة الحج الشامي، دراسة تاريخية، ورقة عمل في مؤتمر تجليات حركة التاريخ في مدينة نابلس، خزانة فلسطين التاريخية (1)، ص19.

18 الركب المصري: أحد ركاب أو قوافل الحج الأربعة المعروفة عبر التاريخ الإسلامي، وهي الحج المصري، الحج الشامي، الحج العراقي، الحج اليمني، وكان الركب المصري يضم في ثناياه وفود المغرب والأندلس عبر شمال إفريقيا مرورا بالقاهرة، ثم إلى سيناء، فغزة، ومنها إلى مدينة العقبة، ثم إلى بلاد الحجاز أو الجزيرة العربية حيث الحرمين المكي والمدني. انظر؛

عبدالكريم، رافق، العرب والعثمانيون (1516-1916م)، دمشق، ط1، 1974م، خريطة الركب المصري، ص605.

19 علاونة، شامخ، النقوش المملوكية والعثمانية في لواء نابلس، دراسة تاريخية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القدس، 1998م، ص30-34.

20 وردت في النقش برسم (فابادر) إلا أن الأصوب والصحيح لغة وقافية (نابلساً فبادر).

21 الأصوب (وتأييد)

22 العسلي، كامل، نقوش من نابلس والخليل، ص368.

23 المرجع نفسه، ص368.

24 المقدسي، شمس الدين أبي أحمد البشاري (ت.387هـ/997م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة ليدن، 1988م ، ص174: النمر، إحسان، تاريخ جبل نابلس والبلقاء، مطبعة عمال المطابع التعاونية، نابلس، ط2، ج1، 1975م ، ج4، ص75.

25 كلبونه، عبدالله، المواقع الأثرية والأبنية التاريخية في نابلس، مؤسسة التعاون، فلسطين، ط1، 2020م، ص142.

26 كلبونه، عبدالله، المساجد الأثرية في مدينة نابلس، رسالة ماجستير غير منشورة، المعهد العالي للآثار الإسلامية، جامعة القدس، 1998م، ص15، 25، 43.

27 قميحة، خالد، القبلة في مساجد مدينة نابلس، مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)، مج20، ج2، 2006م، ص 507.

28 وهي منطقة منفصلة داخل بيت الصلاة

29 كلبونه، المواقع الأثرية، ص133، حاشية (234)

30 النابلسي، الحضرة الأنسية، ص329.

31 النمر، تاريخ جبل نابلس، ص106، حاشية رقم (2)

32 يقصد بهم الصليبيون أثناء احتلالهم لمدن الشام وفلسطين

33 كلبونه، المواقع الأثرية، ص131.

34 فيلدن، برنارد؛ يوكيليتو، يوكا، مواقع التراث الثقافي العالمي، ترجمة عبدالرازق إبراهيم، المركز الدولي لدراسة صون وترميم الممتلكات الثقافية إيكروم، روما، إيطاليا، 1998م، ص92.

35 علاونة، النقوش المملوكية والعثمانية في لواء نابلس، ص30-34.

36 العسلي، نقوش من نابلس والخليل، ص368.

37 المرجع نفسه، ص368.

38 كلبونه، المساجد الأثرية في مدينة نابلس، ص133، قميحة، القبلة في مساجد مدينة نابلس، ص507.

39 انظر: كلبونه، المواقع الأثرية، ص131، حاشية 227.

40 انظر: كلبونه، المواقع الأثرية، ص132، حاشية 228.

41 وهي منطقة منفصلة داخل بيت الصلاة

42 كلبونه، المواقع الأثرية، ص133، حاشية (234)